

معضلة الحداثة قراءة في الأطر المعرفية للحداثة

باقي أحمد

جامعة سيدي بلعباس

يعد مصطلح الحداثة من أهم المصطلحات النقدية التي دارت حولها إجتهدات كثيرة وهذا من خلال الخلفيات الإبستمولوجية الكامنة وراء تحديد هذا المصطلح الذي تتشابه فيه الأصول النظرية و الأطر التحليلية ومن هنا أصبح مصطلح الحداثة مجالا خصبا للدراسات النقدية بمختلف توجهاتها وهذا ما أكد عليه عددا كبيرا من النقاد العرب والغربيين في إطار دراساتهم وتحليلهم لهذا المصطلح لأنه ينطوي على قدر كبير من اللبس والغموض والتناقض على المستوى الإبستمولوجي والأدبي الإبداعي¹ كما أن كلمة الحداثة أصبحت ضباية قد تقول شيئا وقد تخفي أمورا كثيرة، وكما أنه مصطلح مراوغ ومتقلب وإذا نظرنا عليه نظرة قواعدية وفلسفية.²

لإن مشروع الحداثة لم توقف عند محاولته وتجاوزه تجاوزا مطلقا، بما يعد ما بعد الحداثة التي أصبحت اليوم عودة ينادي بها الغربيون، و يعالجونها معالجة فلسفية ومعرفية في إطارها الابستمولوجي الخاص بها، وقد أصبح الغرب يعلنون عن نهاية الحداثة، ولكن هذا لا يعني فشلها التام، كما تصور البعض من مثقفي الأمة العربية، يقول المفكر غالي شكر في هذا المجال " إن عصر النهضة العربية الحديثة لا ينطبق عليه هذا المفهوم بصورة آلية لاختلاف المسار التاريخي للحضارة الأوروبية عن المسار التاريخي للحضارة العربية³ .

فالحداثة تمثل قطيعة معرفية مع الماضي وتطمح إلى التعلق بالحاضر والخروج من المعتاد إلى غير المعتاد ومن المعروف إلى غير المعروف وانتقالا من المجهول إلى المعلوم ومن هذا المنطلق أخذ النقاد العرب يحاولون ترجمة مصطلح الحداثة و الكشف عن الميكانيزمات لهذا المنهج الجديد.

فكامل أبو ديب: " يقترح ترجمة Modernism عوض ترجمة Modernite أي الحداثية ويذهب في هذا الاتجاه فاضل ثامر يقترح ترجمة modernism أي الحداثانية قياسا على الشكلائية أو الإبقاء على تعريب المصطلح صوتيا.

عطاع صفدي يرى أن مصطلح الحداثة modernism مشتت من mode وهي الطبيعة أو الشكل أو الصورة التي تظهر فيما يحدث للفظلة العربية للحداثة والتي تأتي أصلا من حدث.

وقد احتوت هذه النماذج البسيطة ترجمة الحداثة و هذا لدقتها ومسايرتها الاتجاه العلمي و الأكاديمي، ومع هذا يجب علينا أن نفرق بين جملة من المصطلحات والتي ينطوي بعضها على قدر كبير من الإبهام والغموض و الذي يشكل خللا كبير يشوش على ذهن المتلقي ويجعله في حيرة، و على هذا يجب أن نفرق بين الاشتباه الحاصل بين مصطلحات الحداثة والمعاصرة في ضوء آراء النقاد التي تناولت هذه الإشكالية بالدراسة والتحليل.

الحداثة و المعاصرة

إن مفهوم المعاصرة ذو دلالة زمنية و هذا ما يؤكد عليه جليل عصفور إذ يقول: "ارتباط المعاصرة بالعصر مجرد العصر ينأى بالمصطلح عن اقتناص روح العصر فيتحول المصطلح إلى مجرد وعاء زمني يضم البياني والجواهري معا في مستوى زمني واحد فحسب، ولذلك تضل صفة المعاصر حائمة حول البعد الزمني"⁴ ، كما أن الإلحاح عن ارتباط الشعر بروح العصر يحول الشعر إلى نوع المحاكاة ويوقع في عزلة مفهومية.

وعلى هذا الأساس تشبعت الحداثة بالعصر الذي سميت بعصر الأنوار أي بالنهضة الأوروبية التي أصبحت تؤمن إيمانا قويا بالماديات وأهملت الروحانيات كما أنها أسقطت المطلق الميتافيزيقي، فالحداثة الغربية انطلقت من أرضية تصوير الإنسان بحيث يتجسد الإنسان الغربي باعتباره وصل إلى مرحلة قصوى من حيث الحضارة والتمدين وهذا من خلال مكاشفة للنظام و التماثل للحداثة، تبين و ترسم أرضية العقل الغربي كونه عقل تمكن من إنتاج المعرفة إلى ابعاد حد ممكن لأنه "وعي الحداثة بذاتها يستند إلى وعيها بضرورة تمييزها عن القديم، و لهذا فإنها تتعارض اصطلاحا مع القدم للدلالة على رفضها أسسه وأهمها الديمومة والثبات لأنهما يتعارضان مع معطيات الجدة والابتكار، إنما تدرك الأشكال في كل مجالات الحياة سواء تعلق الأمر بالسياسة أو الاقتصاد أو المعرفة بحيث تكمن ماهية المجتمعات الحديثة من الطريقة التي تحرر الفرد مثل ثقل التقاليد"⁵.

وهذا يعني أن العقلانية الغربية بلغت مستوى كبير في تفكيك وتحليل المعرفة بطرق علمية بحتة بعيدة عن التجرد والرجوع إلى الماضي والتباهي به، وهذا ما يدعو إليه الحداثة في نظريتهم.

لأن لا مشروع الحداثة التي رسمت مع عصر الأنوار لم يكتمل بعد إثر الهجومات التي تعرض لها هذا

المشروع من قبل ثم امتداده إلى اليوم أي ما يسميه (هابرماس) بفلاسفة ما بعد الحداثة، ولعل ما تولد عن اشتغال

(هابرماس) بقضية الحداثة وابتعادها عن الميتافيزيقا من هنا يظهر لنا أن معظم المفكرين الذين تناولوا مسألة الحداثة بالدراسة

و التحليل والتنظير يرون أن الحداثة ثورة ثقافية شاملة شملت جميع المعارف الإنسانية و ألبستها بلباس الحضارة والتمدن

فكانت ثمة دعوة قوية وإن بطوائف مختلفة للإجبار، فالفن والتعليم وحياة الماضي كانت كلها مصادر وحوافز لإبداعية

جديدة في مواجهة خطاطم سائد ومشوه وقد وقفت الحداثة عند نقد العقلانية الذاتية في الفلسفة الغربية بمختلف اتجاهاتها

ومعطيها فجاك دريدا نظر إلى هذه المسألة نظرة قواعده شاملة و أدى هذا إلى تفكيك الأصول "فالأمر يتعلق

باستراتيجية شاملة للتفكيك تتفادى الوقوع في فخ الثنائيات الميتافيزيقية، وتتقدم داخل الأفق المطلق لترى الثنائيات عاملة

على حلحلة، و كانت استراتيجية التفكيك ضرورية ولا متناهية في الوقت نفسه، فذلك راجع بالأساس إلى أننا نعيش على

الحقيقة و نتغذى منها وعلى هذا الأساس تضع الحداثة يدها على الجرح حيث تقف عند تفكيك المعنى، وتحليل الرموز

الذاتية العمياء التي انتهت إلى الابتذال والتراجع وهذا ما أكد عليه نيتشه حين قال " ليس المهم هو إنتاج خطاب الحقيقة

فراغا في تقصي ما يتولد عن الخطابات من مفعولات الحقيقة" ⁶ ومن خلال هذا نستطيع أن نؤكد أنه نيتشه بجدارة نبي

(الحداثة) وهذا من خلال أفكاره وآرائه، وفلسفته التي تحلل العقل الغربي وتعطينا مفهوما جيدا للحداثة وإعادة صياغة العقل

بمعطياته الفكرية والمعرفية "بل يصير هو النقد الخالص باعتباره يرادف التابع و . يصاحبه ... دائما، لا يعلو فوقه ولا يتخلى

عنه وقراءة العقل، صارت تعني اكتشاف جاهزية الملفوظ والمفعول من حيث أنه فاعل دائم، ولا ينتهي فعله، فلم يعد يخيف

العقل عدم تجانسه لامع مع ذاته ولا مع موضوع ذاته" ⁷ وهكذا نستطيع أن نؤكد أن الحداثة تسعى إلى تخليص الإنسان

المعاصر من المتاهات القديمة وتحته على مسابرة العصر الذي يعيش فيه وفي مختلف المجالات سواء كانت أدبية أو علمية.

و من هذا المنطلق أن الحداثة ولجت إلى كل المجالات و منها المجال النقدي و هذا كما أكد عليه محمود أمين العالم " أن

مختلف الاتجاهات في نقدنا الحديث و المعاصر عامة هي أصداء التيارات النقدية أوروبية و بالتالي أصداء كذلك وراء هذه

التيارات من مفاهيم استيولوجية و أيديولوجية" ⁸ و يرى أودونيس أن الحداثة في المجتمع العربي لا تزال شيئا مجلوبا من الخارج ، أما

الحداثة تتبنى الشيء الحدث و لا تتبنى العقل أو المنهج الذي أحدثه فالحداثة موقف و نظرة قبل أن تكون نتاجا ، فقد أثرت

الحداثة في المجتمع العربي تأثيرا واسعا في كل المجالات ، سواء كانت علمية أو فلسفية أو أدبية ، فالنقد المعاصر بمختلف مناهجه

و تياراته ، قد تأثر في كثير من الأحوال بالنقد الغربي و لكن "لا يمكن الربط بين النقد العربي و النقد الغربي في إطار التصور

القائم على كافة مختلف البيئات الحضارية" ⁹ و بهذا أصبح الغرب يترع في هذا المجال على عرش الريادة و أصبحت الأفكار

الحديثة تسيطر على الفكر العربي و توجهه في كل الإتجاهات ، و تتحكم في مناهجه و تياراته و تسربت هذه الأفكار إلى عالم اللغة و الأدب و قامت عليها مناهج نقدية معاصرة "النظرية البنوية ، إستراتيجية،التفكيك ، و نظرية القراءة " ومن المعلوم أن اللسانيات أصبحت في حقل البحوث الإنسانية و مركز استقطاب بلا منازع و تلك العلوم أصبحت تلتجئ في مناهج بحثها و في تقدير حصيلتها العلمية إلى اللسانيات و إلى ما نتجه من تقديرات علمية و طرائف في الإستخلاص و تقدير كل هذه الظواهر أن علوم الإنسان تسعى اليوم جاهدة إلى إدراك المنزلة الموضوعية بموجب ضغط المنزع العلمي على الإنسان الحديث " و استعانات المناهج الأدبية بالأفكار الفلسفية فالبنوية مثلا كانت استجابة لرغبة منهجه علمية خالصة" ¹⁰ فميكانيزمات التفكيك جاءت نتيجة للفلسفة النيتشوية كما ارتبطت بمنظومة فكرية و فلسفية أكسبتها خصوصيتها و محمولاتها الثقافية " ذلك أن الحداثة في آفاق الوعي الذي صاغها ليست محدد إنتاج نص شعري حديث بقدر ما هي الطموح لإخضاع تجربتها في بنية إقتصادية إجتماعية ثقافية شاملة" ¹¹

و كأن هذه الحداثة حاملة لواء العلم و العقل و الحرية ثم أن العلاقة بين الحداثة عند العرب و الغرب ما هي إلا علاقة وطيدة لأن الغرب حينما أخذ يعلو شأنه و تتطور ركائزه على أسس متينة و قواعده سليمة ، إتجه العرب إلى الغرب يطمح في أخذ المعارف الإنسانية ، في كل معطياتها من آداب و علم و فلسفة و غيرها ، و هذا الإنبهار في حد ذاته دفع المؤسسات العربية بمختلف مشاربها إلى إرسال البعثات الطلاب إلى الجامعات الغربية لأخذ المعارف و العلوم ، من مصادرها و هذا " من أجل تحديث العقل العربي ، أو مجرد اقتباس أنظمة تعاليم أوروبية حديثة تطبق في عدد محدود من المدارس " ¹² .

فالحداثة من المنظور المغربي يرتكز أساسا على المعقولة لأنها في واقع الأمر حقل معرفي المعرفي لتنظيم بنية المعارف ، التي تركز على الإكتشافات العلمية التي قدمتها عصور النهضة الغربية إلى الإنسانية قاطبة ، و هذا من خلال مشروع معرفي يركز على الحداثة في كل المجالات المعرفية إذ كان عصر النهضة الأوروبية قد سمي عند معظم المؤرخين بعصر الإحياء الحضاري و البحث الكلاسيكي

فإن عصر النهضة العربية الحديثة ينطبق عليه هذا المفهوم بصورة آلية لإحتلاف المسار التاريخي للحضارة الأوربية عن المسار التاريخي للحضارة العربية

الإحالات:

- 1-الفكر المعاصر: محي الدين إسماعيل، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1989، ص 261.
- 2-إشكالية الحداثة،عبد الرحمن عبد السلام محمد، عالم الفكر،عدد 2 ص 91.
- 3-غالي شكري،ذكريات الجيل الضائع، الدار العربية للكتاب، ليبيا 1984،ص 63.
- 4-مدارات نظرية، فاضل ثامر،دار الشؤون الثقافية، ط1، 184، ص 170.
- 5-نقد العقل الغربي، الحداثة وما بعد الحداثة،مطاع الصفدي،مركز الاتحاد القومي،بيروت، ط1،ص 222.
- 6-معنى الحداثة في الشعر العربي المعاصر: جابر عصفور فصول: الهيئة العامة للكتاب،القاهرة، 1984 ص 363.

- 7- نيتشة ونقد الحداثة، نور الدين الشابي: ،دار المعرفة ، تونس ص 87.
- 8- الجذور المعرفية و الفلسفية كالنقد العربي الحديث و المعاصر ، ص75
- 9- الشعرية العربية أدونيس:،دار الآداب بيروت ، ط1، سنة 1985، ص84
- 10-المرجع نفسه ، ص10
- 11-الحداثة الأولى ، محمد جمال باروت إتحاد أدباء و كتاب الإمارات ، ط 1 ، 1991 ، مطابع الوطن ، الكويت ، 2001 ، ص27
- 12-ذكريات الجيل الضائع، على شكري، ص63